

قراءة في ثلاثة دواوين لـ لياس لحدود

# المسافة بين القصيدة الحالم والواقع

بقلم محمد درويش

« لم يبقى للصيف البعشر

الا وجوه بأنتاء

وبضع اولاد حفاة

يجمعون ورق الصنوبر »

وتستمر رياح الخريف ، ويتسم الشاعر لحدود لفناء العصفير ، وتسقط غيمة ، ويعرح أنتاء - وبعد المطر تعالت صيحة الصقر اترهيب من على صخر عظيم .. ثم ولدت الاجيال كالظلال في الجبال - وتوالت الاشعار صاحبة ناعمة ، فأبصر الشاعر « المغارة » وسمع الخراف - وراى الثلج بقايا اقدم ، يسير على مقربة منها نسبح الفلاح الفقير ..

وبعد الميلاد تكون الكلمات - وفي الطريق ينتفل لياس لحدود الى الرومانطيقية فيفني عودة البجع والمرقا ورحيل الصيادين - تم ينظر ويكتب للربيع اغنية . ويدخل في الاسلوب القصصي المميز بروح المتابعة والمغامرة الى حد كبير ، فيطالعنا بقصيدته اربعة مشاهد في غابة - ويطل حطاب ليحطب لتشتاء بلا انتهاء .. ثم يرسم لحدود رسوما انفجر وللارز وللرياح المحترقة ، والمصنم المحطم .. ويعرج شاعرنا على الموسيقى الريفية ليحكى عن الجوع الذي قطع ايديه السكون - ثم يقص علينا عن العيينين اللتين نطلبان شيئا - ثم يعود الى الخريف .. وحين تولد السنابل الحية ويبرق المنجل في اقصى متاه في الجنوب بين امواج الحيا الصفراء في السهول الرحيب - يخاطبه لياس لحدود :

« يتحدى قبضة الموت التي شدت على اعناقها بعدما ازهى اصفرار الخير في اوراقها » .

وبين اتصفاة واليقظة والريح والهشيم - وقصائد الاوراق والشاعر والحنين ، الى حيث تسكنين وآخر ايام حزيان - ووحشة ، وذكرى الصيف الاخير وايلول .. يضع الشاعر بين اطراف رولا وحب الظلال وحزن القمر - ويصل لنشيد البحارة يتساق لحدود اغنية الرياح الطويلة - والالوان السوداء - وقصائد المطر وينهي ديوانه الاول بتلك الرحلة بين الدعوة الى الحياة والاخضرار .

□ وتفتح مسيرة لياس لحدود الشعرية بين الشوق للربيع والامل بالتحول الثوري لانساننا الذي يراقب الشمس يوميا - فالارض لم تعد الا الحبيبة التي تناجيها

□ في خارطة الشعر العربي الحديث اكثر من قصيدة في اكثر من موقع - وفي مسيرة الشعر نفسه اكثر من موقف لاكثر من قضية .. ولكن تبقى قضية التوصليل خاضعة للايمان اكلبي بحقيقة ما يصدر عن الذات اشاعرة لحقيقة الشعور ومن ثم التفاعل بين ما هو كائن وما سوف يكون .. وتبقى قضية الشعر هي الاساس الاول في التعامل الواعي والعقل مع القصيدة العربية الحديثة .. من هذا الاطار يبدو مجرد الحديث عن ثلاثة دواوين شعرية لشاعر هام من الشعراء العرب اليوم - مغامرة في مسرح النقد - تتطلب اكثر من موجة موضوعية في بحر النقد الذي - تتلاطم أمواجه - بلا سبب في زمن قل فيه ان تجد عملا ابداعيا كاملا متكاملآ له جذوره ومسيرته الطويلة المبرمجة والمتطورة في آن معا .. من هنا فان مناقشة اعمال الشاعر لياس لحدود الثلاثة نبغي منها محاولة التمازج بعض الاضواء النقدية والاستطلاعية علنا نصل الى بعض ما يختفي خلف القصائد من حالة ثورية وانسانية وشمولية ابداعية لها ارتباط اساسي باساسية الفن وقدرته على تحويل المد الانساني الى الامام ..

## 1 - على دروب الخريف ( مرحلة الحلم )

.. وفي بداية الحلم المتصاعد في البحث عن القصيدة - الفعل - تصاعدت القصيدة عند الشاعر لياس لحدود منذ ديوانه الاول على دروب الخريف (1) لتكتب وصية الكتابة تارة بالدمع وتارة اخرى بالوجدان « وغنت للفلاحين وللنساء ولعطش المساء الموهل في الحزن - وغنت لفاتحة النشيد اكثر المرارات .. وخاطبت الوجة الحزينة - وكان النشيد باردا في الدم وحرارا في اللقاء .. وبين المطر والشباب والصراع - كان السأم وكانت شجرة الشاعر قليلة الاوراق قلمام ذاكرته بانخفاض وانفجر في الصمت كالعاصفة - وارتفع مع الجناح .. وحكى لنا عن تشرين والدموع التي لاحت له من اقاصي الجنوب ، وعن الايدي المملة التي تذكره بالشتاء الكئيب وهو يودع اهله .. وكان الشاعر يقفز بين انضجر واتنلاشي الى التأم ورواسب الصيف الى الخريف ، الى ان يعلن صيحته الكبرى في الزمن الجنوبي :

الفرح مروراً بالمقاتلين - والأغنية - إلى المحطة - وأغنية المناجم « والبنائون » والسد والبلاد . . إلى أن يسرد لحود صوته وصداه ونغمه التاريخي بصوت الشاعر المتطور أبداً :

« لو يصبح قلبي قنبلة  
فوق الإعداء أفجرها  
لو أصبح ناراً حامية  
بين الأسوار تدمرها » .

ويحاكي الشاعر لحود التراث العربي عبر قصيدته « هوادج الشريف الرضي » ويصرخ « أينهم أحفادي ؟ أحفاد امتنا البريئة يحكون لي قصصاً جريئة عن شرفهم عن شرقنا » وفي قصيدته فيزوف والفصول الأربعة - ينتقل الشاعر بين الفصول العربية فحروب ١٩٤٨ و ١٩٥٦ و ١٩٦٧ حاضرة في جرحه - وحاضرة في أحاسيسه - لذا يقول :

« فجري البركان يا أرضي  
- تشرى ؟  
طال انتظاري  
أنا أرضي أنا . .  
والنار ناري » .

وتنطق الفصائد في خط تصاعدي يختصر المسافة بين الحلم والواقع فمن قصائد « ولادة المتنبي » و« السائح والبركان » إلى « المسافرين في الربيع » ومن دفتر الطفولة إلى عودة تموز وأمانيات الشاعر إلى أحلام العيد ورقصة السيوف - تكون المفردات عند لحود مادة التلاحم والتوحد مع المشاكل الإنسانية للعالم أفسيح . . ومن أهم قصائد الديوان التي تشكل كلاً متكاملاً قصيدة « والسد بنيناه » التي جاءت لتكتب عن عزيمة الإنسان العربي وقدرته على تحويل الهزيمة إلى نصر ، ونرى فيها الشاعر لحود يستحضر كل إمكانات الإنسان العربي التاريخية في محاولة منه لرصد المستقبل والكتابة له بوحى من التفاؤل بقدرات هذا الإنسان الإبداعية والفكرية وأحضارية . . ولقد كان الشاعر لحود ناجحاً فيما اختطه لنفسه من خط تاريخي يتناسب مع عمق ووعي المنهج . .

### فكاهيات بلباس الميدان ( «مرحلة الحلم الثاني» )

إن مجال الشعر هو الشعور ، سواء أثار الشاعر هذا الشعور في تجربة ذاتية محضة كشف فيها عن جانب من جوانب آنفس ، أو نفذ من خلال تجربته الذاتية إلى مسائل الكون ، أو مشكلة من مشكلات المجتمع ، تنراى من ثانياً شعوره وأحاسيسه (٣) - وهكذا فإن الشاعر الياس لحود كان وما زال منذ ديوانه الأول وحتى ديوانه الثالث فكاهيات بلباس الميدان (٤) يأخذ من الناس ويعطيها - ويتعلم من أجماعهم ويعلمها حسب رأي الشهيد

الرياح والمعاول والأمطار - والقضية في ديوان لحود الأول كانت معه بين السطور . . تتفاعل وتنفل وتنهل في القصيدة - وهكذا كتب لحود بداية التعب الجنوبي منذ إطلالته على عالم الشعر العربي . .

### ٢ - والسد بنيناه ( مرحلة الواقع )

مع المرحلة الثانية من شعر الياس لحود ، كانت المقدمات تصطدم دائماً بجدران الواقع ثم تتخطه وكان التجاذب والإصطدام بين ما يطمح آتية الشاعر وبين ما هو كائن ، ولقد عرفنا لحود رافضاً للمعايير والمقاييس القائمة ، وعرفناه راكباً على جواد الكلمات ومقحمها لاسوار القصيدة التي تختلط بالانفعالات والمحاكاة لماضي الشعر العربي وحاضره - وأساس لحود غير منقطع عن التراث الحضاري للشعر العربي - بل هو تناول كل الماضي وعصره في نتاج نفسه ، لذا جاءت قصائده في ديوانه الثاني والسد بنيناه (٢) لتحكي هذه المقدمات ولترفع الستار عن نتائج القصيدة في جسم القصيدة العربية الحديثة - خصوصاً في مرحلة الستينات حيث كان الشعر العربي في أزمة كبيرة فماذا قال لحود في قصائده ؟؟

في قصيدة « لكم » كانت تعابير آتياش لحرد تلبس توب الصراع - بل تتحول في بعض الأحيان إلى كتلة صراعية واحدة كاملة المبنى والمعنى معاً - والأفما بال القارئ بهذا المقطع من قصيدته :

« اكتب . .  
إلى الذين يبصرون غابة من الطيور  
على حدود قرية ثبات مرهقة  
لأنها على الحدود دائماً محلقة . .  
وأكتب  
لمن يهيب ويتعب  
لأنه يهيب بالذين يهربون  
ويشرب  
من الدموع كأسه المريرة الخمر  
وأكتب  
لحارس يبات واقفاً على سرير نور  
يرى به الصباح والشموس مشرقة . .  
وأسكب  
لمن يريد خمرة ممتقة  
بلا ثمن . . لأنني صفيح  
إمام مجدك العظيم يا وطن . . »

وتمتد المسافة المزروعة بين المعاناة الصادقة عند الشاعر لحود لتوزع على قصائد تحمل عناوين تتفاوت في البنى الفوقية والتحتية للقصيدة - إلا أنها تتسم بصفة واحدة هي أنزيف باتجاه جوهر الشعر الفعال فسي الحركة - فمن قصيدة « الحاصدون » إلى النسر ونشيد

يراقب نفسه في اعين الناس التي يحبها ويكتب من أجلها .. ويخاطب الشاعر الحرب في نريف الذاكرة ويحكي عن المصادرة في زمن الحمامة المطوقة - وعن مذكرات ابي ذر الففاري التي لم تنشر - ويعطسي تعليماته عن الزمن الآتي .. ويشرح لعبة الساحر - ثم يكتب قصيدة وداع على ايقاع اللحن الجنائزي - ويكتب وصية الارتباط بالارض والشجر والناس :

« أنا بانتظارك قرب المعابر  
أشد على جذع سروتنا انحنى  
كلما عبر الفيم ظهرا  
ومالت رياح البنادق نحو الجنوب »

وعندما تتقاطع المأساة والمهابة وعندما تدخل الكوميديا المريرة في حضرة القصيدة - والوجه ينكسر في لفة الماء - يبدو الياس لحدود واضحا مثل شمس الفقراء فقصائده تارة يمازجها الضحك ويلاعها نسيم الصدق في البكاء ومن اجل من ؟ من اجل القصيدة نفسها ..

وتتابع الصور والقصائد من « المنوعات » السى مذكرات عائد الى البلاد الحارة ، الى المأساة على لسان الراوي ، ويفني الشاعر « اغنية القيثارة النحاسية » وكلمات قبل الموت - ويعلن الحياة على مشارف القصائد الاخيرة في ديوانه - وينفجر دفعة واحدة في قصيدته « ماسح الاحذية الجنوبي » حيث يلخص العذاب ويجمع العرق ، ويعد حبات التراب بمواسم الحصاد ، وعندما تكتمل دورة الجرح عند الياس لحدود - وتتقاطع خيوط الحزن - يتذكر بابلونيرودا على قمم ماكتشوبكنشو - فيبكيه كمن يلاحق قصيدة يرجو معها لقاء ، او كطفل يفرح من بعد بكاء - فالياس لحدود شفاف الى حد يصعب معه أن تراه بوضوح - انه يستعين بالدمع ليصل الى البسمة - وهو الحاضر في معاناته في دواوينه الثلاثة هو نفسه الذي يكتب لمانويل مانشادو ويرقص على صرخات الفلامنكو .. وهو نفسه الذي يقول لكل الذين من اجلهم تصنع الاناشيد :

« سال اللحن في معاجن الصفيح  
سال الريح عربدت حوافر الرؤى  
انا صديق الشمس » .

ان الياس لحدود يملك لفة خاصة واحساسا خاصا وهو بالتالي يملك موقعه كشاعر مهم في الشعر العربي الحديث - وذلك لقدرته على محاكاة القارئ ثم اخذه الى عالم كله التصاق بالانسان والثورة .

### هوامش :

- ١ - على دروب الخريف - شعر - دار الروائع ١٩٦٢
- ٢ - والسد بنينا - شعر - دار الكتاب اللبناني ١٩٦٧
- ٣ - النقد الادبي الحديث - الدكتور محمد هلال - دار العودة ١٩٧٢
- ٤ - فكاهيات بلباس الميدان - شعر - دار الآداب - ١٩٧٤

الاديب غسان كنفاني في روايته « أم سعد » - ولقد تابع لحدود مسيرته وكان يتنقل بين ائهم الجنوبي والهيم الانساني متسلحا بالقصيدة وبها يواجه العالم .. ومنذ اول قصيدة في ديوانه الثالث يبدو العمق المعانتي في حروف الكلمات ويبدو التهيؤ الفعلي لكتابة القصيدة ومن ثم استيعاب متغيراتها الايديولوجية وقدرتها على التحول والتحويل معا .. فالمقدرة على العطاء هي بالتالي مقدرة على الاخذ والتواصل مع قضايا الشعب .. ولعل أهم النواحي التي يتناولها لحدود في قصائده هي تلك القدرة على هضم الماضي واستطلاع الحاضر والتفاؤل في المستقبل ، ففي قصيدته - ثلاثة مواسم من كتاب صلاح الدين - يبدو جو القصيدة منوعا ومشرقا :

« اذا كان دمي من نسل دمائك  
مر سيفك ان يطلق سيفي  
او دعني اصهر من قضباني سيفا  
حيث نعود الى بحر الظلمات » .

اما الغربة التي يعاني من نارها انسان هذا العصر الضائع بين الموت والموت فمن يخلصه من برج المسوت وشفق الموت وموت الموت وسكين الموت ؟  
« وانحنى الصوت في دمي  
خطوتان واهبط في وحدتي  
مثلا يهبط الضوء عن سهوات المغازة  
خطوتان وتسقط هدب المسافات ،  
حول وجهي الكآبة والاغنيات السمكة ،  
وجهي شريد على الريح مدّ الذراعين  
اغلق سفر التكون القى الحقائق وارتاح ..  
وجهي تحاصره الازمنة » .

والياس لحدود كعادته ذلك الطائر من غصن السى غصن - وذلك الحامل من اوجاع اللغة ما تكفيه لمسافة الطريق - وحلم الوصول - والشاعر لحدود هو نفسه الذي يصل للقصيدة بدون تكلف وادعاء - وهو الذي يقاتل القواميس الاربعة في قصيدته ثم يتلو ملحقا رومانسيا لتحولات السندباد وعندما يلوح له الجنوب يغنيه من جديد - فهو اغنية الصباح والمساء وقية ينكسر الفأس على جذوع الزيتون ، فنبت في الزيتون ازمنة واظافر .. ثم يركض الشاعر في الحلم الى الصباح ، فتنساب في ذاكرته خنادق الهبوب - « ونام في الحذاء كما ينام الناس في الجنوب » ..  
ويعلن الشاعر موقفه - ويعلن الحرب ويشتمل بالقصائد :

« يطردني الوطن من الفرقة

ممنوع ان اتجول ..

ممنوع ان اقرأ في الصحف سوى اعمدة بيضاء »

ويكتب الشاعر ملصقات على جدران الذاكرة وتتدرج ذاكرته من رصيف الى رصيف ومن موقع الى موقع - ثم